التفاعل النصي والترابط النصي
بين نظرية النص والإعلاميات

سعيد يقطين

تقديم :

١ – ١. منذ أن شاع مصطلح "التناص" في حقل الدراسات الأدبية في أواخر الستينيات وهو يثير همة الباحثين والدارسين إلى الكشف عن مختلف العلاقات المتحققة داخل النص ، أو بين نصوص متعددة . وكان من نتائج ذلك أن ظهرت مصطلحات فرعية عديدة تُجسِّد كلها هذه العلاقات ، وتحدد أهم سماتها ، وهي تتجلى في أي نص لأسباب ودواع فنية وثقافية واجتماعية . وساهمت تبعاً لذلك مختلف هذه الاجتهادات في تطوير رؤيتنا إلى النص، كما سارعت من وتيرة تعميق نظريات النص المختلفة وما يتصل بها .

١ – ٢. نجد من بين أهم هذه الاجتهادات التي أغنت حقل تعاملنا مع النص الأدبي ، وطورت المفاهيم المتصلة بالعلاقات النصية ، دراسة ج. جنيت[١] حول ما يسمِّيه بـ " المتعاليات النصية ". لقد استعمل جنيت هذا المفهوم ليحل محل " التناص "، لأنه أجمع وأشمل ، وهو يتسع وفق تصوره لمختلف العلاقات النصية التي ليس " التناص " سوى واحد منها. وبذلك يغدو " التناص " مفهوماً فرعياً ، يشكل مع باقي المفاهيم التي أدخلها جنيت أنواعاً وأشكالاً من " المتعاليات النصية ".

١ – ٣. أستعمل مفهوم " التفاعل النصي " كمقابل للمتعاليات النصية عند جنيت ، وأرى أنه أعم وأشمل من " التناص " وأدق من " المتعاليات النصية "[٢]. كما أن هذا المفهوم مفتوح على كل العلاقات الكائنة والممكنة ، وعندما نتحدث عن الإعلاميات والنص الإلكتروني ، يتضح

لنا بجلاء أن مصطلح " التفاعل " أكثر ملاءمة وانسجاماً ودلالة من غيره من المقابلات المستعملة في العربية للدلالة على " التناص " أو "المتعاليات النصية ".

١ - ٤. حدد جيرار جنيت أنواع المتعاليات النصية التي رصدها في خمسة أنواع هي : معمارية النص ، والمُناصّ ، والتناص ، والميتانص، والتعلق النصي . ويهمنا من هذه الأنواع جميعاً الوقوف على النوع الأخير الذي كنت قد كرست له كتاب " الرواية والتراث السردي " لأني أريد النظر في هذا المفهوم من زاوية اتصاله بـ " الإعلاميات "، ونعيد النظر فيه في ضوء الانفتاح على المستجدات النصية في اتصالها بالإعلاميات ، ونعاين كيفية استفادة " نظرية التفاعل النصي " من الإنجازات التي تتحقق في هذا المجال . وبذلك نعطي لنظرية النص والتفاعل النصي كل الاحتمالات الممكنة للتطور والتبلور في ثقافتنا العربية الحديثة .

٢. التعلق النصي :

٢ - ١. حدد جيرار جنيت هذه العلاقة النصية (Hypertextualité) بين نصين اثنين ، أحدهما لاحق (ب) "Hypertexe "، والثاني سابق (أ) "Hypotexte ". ويتخذ النص اللاحق السابق عالماً لإنجاز تجربته النصية . وهذا ما دفعنا إلى تسمية هذه العلاقة بين النصين بـ " التعلق النصي "، وذلك على اعتبار أن القاعدة فيها أن الكاتب من خلال قراءاته المتعددة ، يتعلق (بالمعنى الإيجابي للكلمة) بنص نموذج أو كاتب معين ، ويظل يتحتذيه ، ويسير على منواله في نسج تجربته أو التنويع عليها . وتاريخ التجربة النصية العربية وسواها ، يمدنا بنماذج دالة على ذلك (مثل علاقة المعري بالمتنبي ، أو الحريري بالهمذاني ،،، أو علاقة الإنيادة وأوليس بالأوديسا ،،،).

٢ - ٢. إن هذا التعلق لا يقف عند حد المحاكماة أو السير على المنوال، ولكنه قد يتحول إلى الضد ، كما نجد مثلاً مع المناقضة أو الهجاء أو المعارضة . والمثال المشهور لهذا النمط من العلاقة في الإنتاج الشعري العربي ما تقدمه لنا النقائض بين جرير والفرزدق ، حيث يعمد الشاعر جرير مثلاً إلى اتخاذ قصيدة للفرزدق ، فينسج على وزنها وعروضها وصورها وأساليبها ، ولكنه يحول كل ما فيها من قيم إيجابية إلى سلبية . وإلى جانب المحاكاة والمعارضة ، يمكن الحديث عن التحويل حيث يكون الانطلاق من تجربة نصية معينة مناسبةً لإنتاج دلالة خاصة ، أو إبراز تصور مختلف . ويتجاوز التحويل هذا البعد الدلالي إلى المادة الحكائية ، وطرائق اشتغال الخطاب ، كما جد مثلاً في ليالي ألف ليلة لنجيب محفوظ ، وعلاقتها مع ألف ليلة وليلة . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة في الإنتاج العربي الحديث .

٢ - ٣. لا يقف حد التعلق النصي بين نصين ينتميان إلى نظام علامات خاص (اللفظ / الكتابة) ، ولكنه يتعدى ذلك إلى أنظمة متعددة العلامات ، حيث يكون النص المتعلَّق به (السابق) من نظام لفظي ، مثلاً، لكن النص المتعلِّق (اللاحق) ينتمي إلى نظام علامات مختلف : فرواية نجيب محفوظ يمكن أن تحول إلى السينما ، وقصة أهل الكهف ... يمكن أن تحول إلى مسرحية (توفيق الحكيم) ، كما أن الرسام أو المصور أو الموسيقي يمكن أن يتعلق بنص أدبي أو ديني أو ثقافي ،،، فيقدمه من خلال نظام العلامات الذي يشتغل به ، فيبرز لنا من خلال اللوحة (الرسومات الشعبية التي تمثل عنترة وعبلة) ، أو القطعة الموسيقية (شهرزاد) .

٢ - ٤. إن التعلق النصي في الدراسات الأدبية قدم إفادات كثيرة ومهمة عن العلاقات التي يمكن أن تأخذها النصوص أو الأعمال الفنية

المختلفة بعضها ببعض . كما أنه كشف لنا عن أنظمة العلامات المتعددة، وكيفية تفاعلها من خلال إنتاج معين في نطاق خاص[٣]. ويبين لنا هذا أن التفاعل يتجاوز النص في بعده اللفظي إلى نصوص ذات طبيعة صورية أو صوتية وغيرها ، وتستفيد من أبعاد مختلفة للنصوص الفنية وسواها . ويكشف لنا هذا بالملموس عن الطابع الغني وغير المحدود لأشكال وأنواع التفاعل التي تتحقق بين مختلف الإنتاجات التي يبدعها الإنسان ، وينشئها لدواع تتصل بتنويع وإثراء أنماط التواصل بين الناس. وخير دليل على ذلك ما نجده كامناً في الدلالات الجديدة التي صار يأخذها التفاعل النصي بوجه عام ، والتعلق النصي بصورة خاصة مع الثورة الإعلامية التي تفرض نفسها باطراد وبوتيرة متسارعة وشاملة محدثة بذلك أساليب وأشكالاً جديدة ومتطورة في الإنتاج والتلقي والتواصل . وذلك ما يمكن أن نتوقف عنده من خلال حديثنا عن "الترابط النصي " الذي هو وجه آخر للتفاعل وللتعلق النصيين .

٣. الترابط النصي :

٣ – ١ . عندما اقترح جيرار جنيت مفهوم (Hypertexte) سنة ١٩٨٢ لم يكن على علم بأن هذا المصطلح كان يوظف في الإعلاميات بمعنى مختلف عن المعنى الذي أراده لنوع العلاقة النصية التي حددها ، وإن كان المعنى العام يومىء إلى ما سنحاول إعطاءه لهذا المفهوم ، ونحن نرمي إلى نقله من مجال الإعلاميات بقصد توظيفه في تحليل النص . لقد ظهر مصطلح Hypertexte في الإعلاميات لأول مرة حين استعمله طيد نيلسون سنة ١٩٦٥[٤]، وبما أن دلالته تختلف عما نجده في تحليل النص الأدبي فإننا نقترح له مفهوم : " الترابط النصي "، تمييزاً له عن "التعلق النصي"، وسنضطلع بتبيين ذلك في سياق هذه الدراسة .

٣ – ٢. انطلق ط. نيلسون من مجهودات سابقة ، وحاول تجاوزها . ويعد نجاحه في ذلك مساهمة تطويرية للأعمال التي قام بها ف . بوش (Vannevar Bush) من جهة، وبعده د. إنجيلبارت (Douglas Engelbart) من جهة ثانية . أقدم ف . بوش سنة ١٩٤٥ (وهو رائد في الإعلاميات ، والحساب الآلي) على البحث عن أسلوب يمكنه من تخزين الوثائق والنصوص كيفما كان نوعها (كتب – مقالات – ملاحظات شخصية – تعليقات ،،،) وتصفحها واسترجاعها ، والبحث فيها ، عن طريق ربط بعضها ببعض ، بحرية وسهولة ، كلما دعت الحاجة إلى ذلك(٥).

٤ – ٣. كان الهاجس الذي حرك بوش إلى البحث عن هذه الطريقة في تخزين المواد وتنظيم البحث فيها ، هو ملاحظته للأعداد الهائلة من المعلومات التي كانت تتراكم باطراد في المكاتب الحكومية(٦)، وكان البحث فيها يستدعي الكثير من الجهد والعمل الشاق . كما كان أساس ترجمته لهذا الهاجس ، يكمن في انطلاقه من فكرة مفادها أن الدماغ البشري يشتغل وفق نظام الترابطات .

لقد دفعه ذلك الهاجس ، إلى تطبيق تلك الفكرة على النظام الذي اخترعه وسماه (Memex)، وهو أداة لتخزين المواد والنصوص ، وتكمن سمته الأساسية في قدرته على إدارة وتسيير المعلومات ذات العلاقة ، وربط بعضها ببعض بشكل آلي . ويتم هذا الربط بنفس أسلوب الدماغ البشري في الربط بين الأشياء . لقد نجح بوش في إدخال مفهومين جديدين لتأكيد هذه الروابط وهما " العقدة " و" الرابط " وسيكون لهما موقع هام في توظيفات الترابط النصي واستعمالاته بعد ذلك . كانت الآلة التي يشغلها لفائدة نظامه ميكانيكية وثقيلة وتستعمل بطائق مُخرَّمة ، ولم يحالف الحظ مشروعه الذي اعترضته عوائق تكنولوجية عديدة فلم يتطور بذلك نظامه . وكان من الضروري تحقيق خطوات أخرى ليصبح المشروع قابلاً للإنجاز ، ولكن على يد غيره من الرواد .

٣ . ٤ . واصل دوجلاس إنجيلبارت (١٩٦٨)، وهو رائد في خطاب الإنسان – الآلة ، وإليه ينسب اختراع " الفأرة " للحاسوب ، مشروع بوش وذلك بانطلاقه من أعماله وسعيه إلى تطويرها من خلال اختراعه لنظام أسماه (On line system) NLS ، وهو أول نظام يسمح بتوظيف الترابط وتجسيده بصورة ملائمة[٧].

٣ . ٥ . هذه الإنجازات كان يحذوها هاجس مركزي يتمثل في تنظيم البيانات والمعطيات المشتغل بها في المكتبات ، وفي التواصل بصفة عامة . وينجح طيد نيلسون في استثمار أعمال أسلافه ، ويقدمها من خلال نظام الحاسوب الذي اخترعه تحت اسم Xanadu وهو مستوحى من عنوان قصيدة لكوليردج " قصر الأحلام ". يربط هذا النظام بين عناصر أجزاء متعددة من المعطيات ، ويسمح بتسجيل الأفكار المصاحبة لمستعمليها في المستقبل[٨]. ويقترح نيلسون مصطلح Hypertexte لتحديد هذه العملية المطبقة على الحاسوب ، والتي تسمح بالتنقل بين المعلومات بحرية وسهولة ، وذلك انطلاقاً من اعتباره Hypertexte أو الترابط النصي مكوناً من مصادر مختلفة ومتعددة ، وهناك إمكانات للربط بينها ، ومنذ ذلك الحين عرف هذا المصطلح شيوعاً كبيراً أملته الإمكانات العديدة التي أتاحها استخدام الحاسوب في الحياة العلمية والعملية ، كما عرف تطورات مهمة من حيث تشغيله وتوظيفه في صناعة البرمجيات والموسوعات والنصوص الإلكترونية . وصار تبعاً لذلك من المفاهيم – المفاتيح التي تستعمل بكثرة في الأدبيات الإعلامية المختلفة . ولقد بدأ الاهتمام بهذا المفهوم يستقطب بعض الباحثين العرب، وإن بشكل محتشم وقليل ، ويبدو لنا ذلك بجلاء في المحاولة الرائدة التي أشرت إليها أعلاه للباحثين بدران وفرحان ، وهي تتصل بالإعلاميات ، والدراسة التي أقدم عليها الناقد حسام الخطيب في كتابه "الأدب والتيكنولوجيا "[٩].

٤. الترابط النصي والتفاعل النصي :

٤ – ١. في كل التعريفات التي وقفت عليها بصدد "Hypertexte " نجد العنصر المبرز ، والمركز عليه في أي تعريف هو ما اتصل بـ " الربط " و" الترابط ". وسنحاول في مستوى أول تقديم بعض التعريفات التي تبين ما نذهب إليه ، لننتقل بعد ذلك إلى إبراز الوشائج التي تصل الترابط بالتفاعل ، ونؤكد بالملموس أن " التفاعل " يظل أعم وأشمل ، ويسم مختلف العلاقات النصية الكائنة والممكنة ، لتتاح لنا بعد ذلك إمكانية الذهاب إلى الأطروحة التي ندافع عنها هنا ، وهي محاولة استثمار مفهوم الترابط النصي الذي نستعيره من الإعلاميات لنعيده إلى التوظيف في مجال تحليل النص الأدبي ونعطيه بذلك كامل أبعاده التي تتحقق في أي نص إبداعي أو أدبي بوجه عام .

٤ – ٢. يقدم لنا التعريف الأول مفهوم " Hypertexte " بأنه " نظام يتشكل من مجموعة من النصوص ومن روابط (liens) تجمع بينها ، متيحاً بذلك للمستعمل إمكانية الانتقال من نص إلى آخر حسب حاجياته"(١٠).

٤ – ٣. وفي تعريف موسوعة إنكارطا(١١) في نسختها الفرنسية (١٩٩٨) نجد أنفسنا أمام إدراج مفهوم الترابط النصي ضمن مفهوم " تعدد الوسائط " الذي ترى أنه يستوعب تقنيتين متجاورتين هما الترابط النصي وترابط الوسائط (سنعود إلى هذا المفهوم) ، وبصدد المفهوم الأول ترى " أنه بتطبيقه على خزانة من الملفات يقوم بربط (chaîner) مجموع هذه الملفات بواسطة نسيج من العلاقات غير المتتالية . وتتيح هذه الروابط (liens) للمستعمل أن يتنقل بين موضوعات متنوعة دون مراعاة النظام الذي تخضع له في ترتيبها ".

٤ – ٤. أما الموسوعة البريطانية[١٢] فتقترح هذا التعريف : " ربط وثائق إعلامية متصلة فيما بينها بواسطة روابط إليكترونية قصد السماح للمستعمل بالوصول إليها بسهولة ".

نلاحظ من خلال هذه التعريفات التي وقفنا عليها ، ولم نرد تتبع العديد من التعريفات التي تمدنا بها مختلف المعاجم والموسوعات أنها تلح جميعاً على فكرة " الربط " بين المعطيات المختلفة ، سواء كانت نصوصاً، أو صوراً ، أو قطعاً صوتية أو موسيقية . بل إن الموسوعة البريطانية تؤكد أن الترابط النصي ، يسمى أيضاً " Hyperlinking "، وفي هذا تأكيد أكبر على مدلول هذا المصطلح وما يحمله من معنى الربط والترابط الذي نجده واضحاً في الكلمات التالية الدالة : Connection / Link / Chaîner / Liens ...

٤ – ٥. نستخلص من كل هذه التعريفات وغيرها أن " الترابط " هو السمة الأساسية التي تتصل بمفهوم Hypertexte ، ولذلك فضلنا هذا المصطلح على غيره ، وميزناه عن المفهوم نفسه في نظرية النص التي تجعله مقتصراً على العلاقة بين نصين سابق ولاحق . ولتوضيح الاختلاف الأساس بين الاستعمالين ، وصلتهما معاً بـ " التفاعل النصي "، لابد لنا من التمييز بين النص والنص الإلكتروني . يظل النص في الاستعمال الجاري مرتبطاً بالشفاهي والكتابي ، بينما نجد النص الإلكتروني هو ما يتحقق من خلال شاشة الحاسوب ، وله مواصفات تختلف عن النص الشفاهي أو المكتوب . وتوظيف الحاسوب في الحياة العملية أوجد إمكانات استعمال " النص " بمواصفات تخضع للإطار الذي يسمح به نظام الحاسوب وتقنياته الخاصة . ولهذا الاعتبار نجد مفهوم " التعلق النصي " يضعنا أمام علاقة بين نصين اثنين ، حيث يقيم اللاحق منهما علاقة مع السابق . أما في النص الإلكتروني ، فالترابط النصي

يتجسد من خلال الروابط التي تتم من داخل النص نفسه ، ويسمح لنا هذا بالانتقال داخل النص ، وفق ما تستدعيه عملية القراءة . وكمثال على ذلك من خلال "الموسوعة الإلكترونية " حيث ننطلق من " مادة " ما، وداخلها يمكننا بواسطة الضغط على مؤشر الفأرة الانتقال إلى البحث عن معنى كلمة ، أو تعريف شخصية وردت في المادة التي انطلقنا منها ،،، وفي قراءتنا للمادة المتصلة بالشخصية يمكننا أيضاً الانتقال بيسر وحسب الحاجة ، وهكذا دواليك . ويتيح لنا " الترابط " في النص الإليكتروني ليس التحرك بين النصوص اللفظية فقط ، ولكن أيضاً الانتقال بين علامات غير لفظية، مثل الصوت ، أو الصورة ، أو الخارطة، أو اللوحة ، أو الصورة الحية أو المتحركة ، ويعرف هذا التوسيع بترابط الوسائط "Hypermédia". ومعنى ذلك أن مفهوم الترابط يتجاوز " اللفظي " إلى أنظمة متعددة . وهذا الشكل من الترابط بمعنييه ما كان ليتحقق لولا التطور الذي تم مع استخدام النص الإلكتروني ، وتوظيف الوسائط المتعددة .

ورغم التباين المسجل بين التعلق النصي والترابط النصي ، فإننا نراهما معاً يرتبطان بـ " التفاعل النصي " بوصفه جامعاً يتسع لمختلف العلاقات بين النصوص ، سواء كانت لفظية أو غير لفظية ، وسواء قدمت شفاهاً أو كتابة أوإلكترونياً، كما يمكننا توضيح ذلك من خلال هذا الشكل :



لكن الفرق بينهما يبرز من حيث طبيعة النص (أو شكل تجليه)، من جهة ، ونوع التفاعل من جهة ثانية . ويتضح لنا البعد التفاعلي ، (وهذا ما جعلنا نفضل " التفاعل النصي " عن غيره من المصطلحات الموظفة في اللغة العربية لتأكيد العلاقات المختلفة بين النصوص وحتى قبل اطلاعنا على الأدبيات الإعلامية) ، من خلال تأكيد المشتغلين بالإعلاميات في حديثهم عن " الوسائط المتعددة " و" الترابط النصي " و"ترابط الوسائط " عن " التفاعل " الذي يطبع هذه العلاقات . وتذهب موسوعة إنكارطا الإلكترونية إلى حد الحديث عن إمكانات " تفاعلية " أتاحتها الوسائط المتعددة من خلال تقديمها للفنانين والكتاب نمطاً من التعبير التفاعلي يزخر بالإمكانات ، ومفتوح على الاحتمالات التي لا يُمكِّنُنا منها أي نمط تعبيري آخر[١٣]. وفعلاً نجد في التطويرات الإبداعية (الرواية والألعاب ،،، مثلاً) ما يؤكد هذا البعد " التفاعلي " الذي نومىء إليه .

٥. التفاعل النصي وآليات الاشتغال :

٥ – ١ . إن تأكيدنا على البعد الجامع لمفهوم " التفاعل " بين مختلف النصوص (أدبية / غير أدبية)، وكيفما كانت طبيعتها أو شكل تجليها (شفاهية / كتابية / إلكترونية) ، يدفعنا إلى جعله عاماً وشاملاً بالقوة والفعل ، وذلك على اعتبار أن التنظيرات التي تحققت في مجال تحليل النص المكتوب تحققت قبيل تبلور النص الإلكتروني الذي جاء محملاً بإمكانات لا تتمثل بالصورة نفسها في النص المكتوب أو الشفاهي ، وإن كان مجال التشديد على تلك الإمكانات قد تحقق مع النظريات السيميوطيقية المختلفة التي راهنت على الاشتغال بالعلامة كيفما كان نوعها (لفظية / غير لفظية) . وتبعاً لذلك ، لابد لنا من الوقوف على

آليات اشتغال التفاعل النصي بقصد معاينة مدى شموليتها لتتسع للترابط النصي أم لا . وفي الحالة النقيض لابد لنا من تحديد آليات أعمّ وأشمل من تلك التي تم الوقوف عليها في تحليل النص لتأكيد الأطروحة التي ندافع عنها هنا ، والمتمثلة في شمولية التفاعل .

٥ – ١ . حدّد لوران جيني[١٤] آليات اشتغال التعامل النصّي ، أو ما يسميه " التناص " باعتباره المفهوم الجامع من خلال ما يلي :

٥ – ١ – ١ . التلفيظ : والمقصود بذلك أن النص وهو " يتفاعل " مع نص آخر ، ينقله من نظام العلامات الذي ينتمي إليه ، ولاسيما إذا كان من غير نظام العلامات اللغوية ، ويمنحه بعداً لفظياً . فالروائي مثلاً قد يصف منظراً أو فضاء ما ، ولكنه لا يقدمه لنا من خلال بعده البصري كما يفعل المصور أو الرسام ، ولكنه بواسطة اللغة ينقل إلينا أشياء غير لغوية .

٥ – ١ – ٢ . الخطية : إن النص المكتوب مثلاً حين يتفاعل مع أي نص، فهو ينقله إلى نظامه الخطي ، ويقدمه لنا متسلسلاً ومتنامياً تماماً كما هو الحال مع أي نص مكتوب . حتى وإن كان النص المتفاعل معه من طبيعة مغايرة .

٥ – ١ – ٣ . التضمين : ويتمثل في إدراج النص المتفاعل معه في نطاق النص ، بصورة تجعله يبدو وكأنه جزء منه رغم كونه طارئاً عليه . وعملية التضمين هاته تستدعيها عملية بناء النص ، وهو يتفاعل مع غيره من النصوص .

٥ – ٢ . هذه الأشكال الثلاثة لعملية التفاعل النصي وطريقة اشتغاله في النص المكتوب مثلاً ، لا يمكن إلا أن تضعنا أمام ضرورة طرح أسئلة

حين يتعلق الأمر بالنص الإلكتروني ، وذلك على اعتبار أنه لا يحقق لنا الطرائق نفسها التي نجدها في غيره من النصوص . فالنص الإلكتروني يعتمد اللغة ، وقد تكون أساسية أو محورية في بعض تجلياته ، ولكنها ليست الوحيدة ، إذ قد يقدم إلينا بعض النصوص التي يتفاعل معها انطلاقاً من علاماتها الخاصة : يمكننا مثلاً الانتقال بواسطة مؤشر الفأرة من قراءة مادة تتصل بجان بول سارتر ، إلى تصريح صوتي له حين رفض جائزة نوبل ، ونفس الشيء نجده في مختلف مواد النص الإلكتروني الذي يعتمد تعدد الوسائط . ومعنى ذلك أن تعدد الوسائط في النص الإلكتروني يأتي ليتجاوز البعد اللفظي الذي يقف عنده النص المكتوب ، وبذلك نتعدى " التلفيظ " ونتجاوزه إلى " تعدد العلامات " بتعدد الوسائط . ونجد الشيء نفسه بصدد الخطية في النص الإلكتروني . لا يمكننا أن نختلف في أن مواد النص الإلكتروني ذات بعد خطي . لكن الخطية في مادة نصية ما ، تتجاور مع اللاخطية التي هي السمة الأساسية للنص الإلكتروني . فالمشتغل بالنص الإلكتروني يمكنه الانتقال هرمياً أو شجرياً في النص ، وبواسطة " الترابط النصي " يمكنه الانتقال بحرية في النص ، ويبين هذا أن البعد الخطي يأتي في مرتبة ثانية ولا يحظى بالمكانة التي يتمتع بها النص المكتوب . أماعملية التضمين فهي تتحقق داخل المادة ، ويتيح الترابط النصي التعامل مع هذه النصوص وكأنها شبه مستقلة لأن كل نص يصبح قابلاً لأن يتضمن غيره من النصوص التي يمكن التوجه إليها رأساً ، والتعامل معها في ذاتها . إن كل هذه الملاحظات تبين لنا بجلاء خصوصية النص الإلكتروني واختلافه عن النص " العادي ". وهي جميعاً تأتي في واقع الأمر لتؤكد البعد التفاعلي ولا تلغيه ، وإن كانت تُجلِّيه لنا بصور مخالفة لما اعتدنا عليه . ولا ننسى في هذا النطاق الإشارة إلى أننا نتحدث عن نوع معين من النصوص الإلكترونية ، وهي تلك التي تعتمد نظام تعدد الوسائط المتطور. أما النصوص الإلكترونية البسيطة ، فلا تختلف كثيراً عن النص المطبوع .

٥ – ٣. إن القواعد التي وقفنا عليها في تحقق التفاعل النصي تبين لنا بجلاء التباين الحاصل بين النص " العادي " والنص الإلكتروني من حيث تجسد أوجه التفاعل فـ :

- التلفيظ # تعدد الوسائط .
- الخطية # اللاخطية .
- التضمين = التضمين .

إن الاختلاف المسجل في النقطتين الأوليين يتصل بطبيعة كل نص من حيث طريقة بنائه ، وأداة تجليه (الكتابي / الإلكتروني). لكنهما تتفقان في التضمين الذي يصل كلا منهما بالتفاعل في حد ذاته (العلاقات النصية). ومعنى ذلك أن التلفيظ والخطية لهما علاقة بالخصائص النصية التي يتحقق من خلالها النص وهو يتفاعل مع غيره ، أما التضمين فيبرز لنا من خلاله التفاعل بغض النظر عن أشكال تجلي النص . ويفيدنا هذا في النظر في صور التفاعل وكيفية بروزها في النص كيفما كان نوع تجليه . ونصل بذلك إلى الأنواع المتعددة التي رصدها الباحثون مثل التعلق النصي ، والتناص ، والمناصة ، والميتانص ، ومعمارية النص ، وأخيراً الترابط النصي . إنها جميعاً تتحقق في أي نص ، سواء كان إلكترونياً أو غير إلكتروني . كما يمكننا توضيح ذلك على هذا النحو :

٥ – ٣ – ١. <u>التعلق النصي والتناص</u> : يتصلان بالتداخل الحاصل بين النص اللاحق والنصوص السابقة ، وكل واحد منهما يتجلى في النص بطريقة خاصة .

٥ – ٣ – ٢. <u>المناصة والميتانص</u> : تتحققان في النص عن طريق التجاور (الهوامش – المقدمات – النصوص الموازية ،،،) أو عن طريق

التعليق أو النقد الموجه إلى النص . أما المعمارية النصية فترتبط بجنسية النص أو نوعيته ، وليست بذلك طبقة نصية خاصة .

٥ – ٣ – ٣. أما الترابط النصي : الذي سجلناه بصدد النص الإلكتروني، فنراه قريباً من النوع الثاني (المناصة / الميتانص) ، حيث نجد أنفسنا أمام بنيات نصية مستقلة بذاتها (نصوص موازية كيفما كانت طبيعتها تعليقية أو تفسيرية ،،،) وتترابط مع النص دلالياً ، وتتعدد بتعدد الروابط التي تمكننا من الانتقال إلى نصوص متعددة ، وبأنظمة علامات مختلفة .

٥ – ٤ . نستنتج مما سبق أن التفاعل النصي يظل أشمل وأوسع ، وأن كل تجل نصي ينشِيء له إمكاناته الخاصة التي يتحقق من خلالها هذا التفاعل. وفي كل الحالات يدفع بنا هذا إلى إعادة النظر فيما تكون لدينا بصدد نظرية التفاعل النصي بجعلها منفتحة على إمكانات النص الإلكتروني والاستفادة منها في تطوير علاقات نصية أخرى تتحقق في النص العادي والالتفات إليها في ضوء ما يقدمه لنا النص الإلكتروني . وذلك ما يمكننا أن نقترب منه في النقطة التالية .

٦. الترابط النصي ، والتعلق النصي :

٦ – ١ . يدفعنا مفهوم الترابط النصي كما يتحقق في النص الإلكتروني إلى إعادة النظر في ما تكون لدينا من تصورات عن النص ، وطرح بعض الأسئلة بصددها . لا مشاحة في أنَّ النص المكتوب تخصيصاً يعتمد مبدأ التلفيظ بوجه عام . لكن الخطية لا يمكن إلا أن نتساءل بشأنها . هل النص المكتوب فعلاً خطي ؟ أم أنه مثل النص الإلكتروني يعتمد الخطية واللاخطية معاً ؟ إننا على سبيل المثال نقرأ النص المكتوب ، وننتقل إلى

الهوامش ، ونضع الكتاب ، ونذهب إلى آخر في مكتبتنا ونفتحه ، ونتبين ما نبحث عنه أو ما يحيل إليه ، ثم نعود حيث تركنا النص ونواصل القراءة ، وقد نتوقف بين الفينة والأخرى ، ونخرج من الكتاب ونعود إليه . ولا يكون الفرق في هذه الحالة متصلاً إلا بطبيعة النص المكتوب والنص الإلكتروني ، وأن عملية الترابط أو التفاعل عموماً عملية تتصل بالقراءة أو طريقة القراءة ، وليست عملية كتابية فقط . بمعنى أن النص قد يحفز على التفاعل ، والقارىء يمارسه . إن التساؤل عن الخطية لا يمكن إلا أن يجدد رؤيتنا إلى طبيعة إنتاج النص وإلى طريقة تلقيه ، لأنه يمكننا حتى في النص الإلكتروني ألا ننتقل بين المواد المترابطة ، ونفس الشيء يمكن أن نقوم به مع النص المكتوب ، إذ يمكن للقارىء أن يتجاوز عن قراءة ما يحيل إليه النص أو يترابط معه ، تماماً كما كان يفعل قارىء الروايات الواقعية في القرن التاسع عشر ، حيث كان يقفز على صفحات الوصف التي قد تستغرق الصفحات ، أو قارىء السير الشعبية التي تهمه الأحداث فيضرب صفحاً عن المقاطع الشعرية الطويلة التي تتخلل النص السيري .

٦ — ٢ . هل ممارسة " الترابط النصي " لصيقة بالنص الإلكتروني أم يمكننا العثور عليها حتى في النص المكتوب ؟ ويكفي للجواب على هذا السؤال أن نتأمل الكتب القديمة التي يضم الكتاب فيها عدة كتب (الحواشي ، الهوامش ، الحاشية على الحاشية ،،،). إننا في هذا النوع من الكتب أمام تفاعل نصي متعدد قوامه التعلق النصي بالشكل الذي تحدثنا عنه (نص سابق / نصوص لاحقة)، وفي الوقت نفسه أمام "الترابط النصي " بالمعنى الذي نجده في الأدبيات الإعلامية : إذ يمكننا الانتقال من النص إلى النصوص التي يترابط معها النص (من النص إلى الهامش إلى الحاشية) (١٥). ولقد مارس القدماء عن طريق توظيف الألوان المتعددة في الكتابة ما يؤكد ما نجده اليوم في النص الإلكتروني

(توظيف الألوان والتحديدات لتأكيد الترابط وسوى ذلك من التقنيات). ويعني هذا في تصورنا أن التعلق النصي يتصل بالترابط النصي اتصالاً وثيقاً رغم الفوارق التي نجدها بين النص المكتوب والنص الإلكتروني، ويؤكد صلتهما معاً بالتفاعل النصي .

٦ – ٣. يقودنا هذا التحديد إلى الوصول إلى النقطة التي نود طرحها والعودة إليها بدافع التفكير فيها ، وتتمثل في أن الترابط النصي ليس فقط سمة للنص الإلكتروني . إننا نجده كذلك في النص المكتوب . وبهذا التصور نرى أن التفاعل النصي يظل المفهوم الجامع الذي يستوعب مختلف العلاقات النصية التي تتحقق في أي نص . وأن لائحة الأنواع التي تم تحديدها لضبط هذه العلاقات ليست نهائية ولا كاملة . وكلما تطورنا في فهم النص ومجمل علاقاته أمكننا الانتهاء إلى تحديد أنواع أخرى . وأن أنواع التفاعل النصي المحددة إلى الآن تتحقق في النص المكتوب والنص الإلكتروني بما في ذلك التعلق النصي . غير أن "الترابط النصي " الذي وضع لتجسيد العلاقة داخل النص الإلكتروني ، يتحقق داخله بناء على اعتبارات خاصة بطبيعته النصية (اللاخطية – تعدد الوسائط) ، لكننا يمكن أن نجده كذلك في غير النص الإلكتروني ، لكن من خلال " التلفيظ " أي السمة الأساسية التي يتجسد بواسطتها النص المكتوب .

٧. تركيب :

٧ – ١. تطورت رؤيتنا إلى النص بناء على تطور آليات دراسته وفهمه في العصر الراهن ، والإعلاميات واحدة من المنجزات الحديثة التي استفادت من اللسانيات ومن نظريات النص في معالجة النص الإلكتروني. ويمكن لنظريات النص أن تستفيد بدورها مما يتحقق في

الإعلاميات بصفة عامة ، والإعلاميات اللسانية خصوصاً . إن تضافر اختصاصات شتى في مقاربة النص واستثمارها في معالجته مثل نظرية الذكاء الاصطناعي والنظريات المعرفية والإدراكية والنفسية ،،، ساهمت في تقارب التصورات المُشكِّلة حول النص ، وجعلت من الممكن بل من الضروري استفادة بعضها من البعض الآخر . ونظرية التفاعل النصي واحدة من المنجزات المهمة على هذا الصعيد . لقد أدى ظهور التمييز داخل النص بين مختلف بنياته إلى تجاوز النظريات التقليدية حول النص، وساعد هذا على جعل الإعلاميات تستفيد من ذلك وتسهم بدورها في تطور رؤيتنا إلى النص ، ولاسيما من خلال الممارسة (إنتاج النص الإلكتروني) ويمكننا الانطلاق منها لمعاودة النظر فيه من خلال طبيعته القابلة للتحقق بأشكال وصور متعددة ومتنوعة .

٧ – ٢ . إن القاعدة الأساسية التي نضعها نصب أعيننا لتجسيد هذا التصور الذي نحاول الاشتغال به في نصوص عربية قديمة وحديثة تتمثل في أن الدماغ البشري يعمل فعلاً وفق مبدأ " الترابط ". وأي نص كيفما كان نوعه نتاج عمليات معقدة من التفاعل والترابط . وإذا كان التحليل ينصب على النص المنجز ، والمتحقق فإن وراء ذلك إنجازات متعددة حاول علماء النفس وسواهم من علماء نظريات الإدراك البحث فيها ، وما ظهور مفهوم " ما قبل النص " سوى واحد من تلك التجليات . إن إدخال مفهوم " الترابط النصي " بالمعنى الذي يستعمل به في الإعلاميات كفيل بمدنا بإمكانية حيوية للنظر في النص الأدبي كما نبحث فيه ، ليس فقط بصفته موئلاً للتفاعل بين بنيات نصية ، ولكن علاوة على ذلك انطلاقاً من علاقات نصية تترابط داخلياً أو ذاتياً لإنتاج النص . ويساهم هذا في رأيي في تطوير تصورنا للنص الأدبي العربي وتعميق معرفتنا به، والنص العربي القديم يقدم لنا نماذج ثرة ، ولاسيما ما يدخل منه في نطاق ما نسميه بـ " المصنفات الجامعة " باعتبارها أعمالاً تقوم على

تخزين النصوص وتجميعها . يمكننا الانطلاق من أن معاينة صور الترابط المتحققة داخل النص ، أي ، بين عناصره المكونة له سواء كانت بنيات نصية طارئة أو متفاعل معها ، يساعدنا على تلمس آليات جديدة لتحديد ما يضمن للنص تماسكه وانسجام مكوناته وعناصره . كما أنه يمكننا من إعادة النظر في مختلف " النصوص " التي يدمجها النص في بنيته وهي من طبيعة مختلفة ومغايرة .

٧ – ٣. إن تطوير فهمنا للنص يمر من تطوير فهمنا وضبطنا لمختلف العلاقات النصية . وفي الممارستين معاً لابد لنا من وضع مختلف الإنجازات قيد الاهتمام والبحث والتساؤل . إننا الآن أمام مرحلة جديدة من إنتاج وتلقي " النص الإلكتروني "، وأي تطور في نظريات النص المكتوب يساعدنا على فهم وتحليل النص الإلكتروني ، كما أن أي تطور في نظريات النص والتفاعل النصي يمكن أن يتحقق من خلال الاستفادة من إنجازات مختلف العلوم ، ومن بينها الإعلاميات التي على المشتغلين بالأدب أن يولوها المزيد من العناية والاهتمام ، ليس من باب الموضة كما يمكن أن يتوهم المتوهم ، ولكن من باب العلم بالجديد والضروري من المعارف التي تمكننا من إثبات الحضور ، والمواكبة والتقدم .

الهوامش

١. G. Genette, Palimpstes, seuil, 1982 p. 9

٢. انظر : سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، النص والسياق ، المركز الثقافي العربي ، بيروت / الدار البيضاء ، ١٩٨٩ ، ص ٩٣ .

٣. Yannick Mouren, Le film Comme hypertexte, in Poétique N° 93 Février 1993, p. 113.

٤. Hypertexte, in Encylclopaedia Universalis 3.0 1997, France S.A.

٥. E.U. مرجع سابق .

٦. أوديت مارون بدران / ليلى عبدالواحد فرحان ، النص المترابط (الهايبرتكس) ، ماهيته وتطبيقته ، المجلة العربية للمعلومات ، م. ١٨ ، ع. ١ ، تونس ١٩٩٧ ، ص . ٧٢ .

٧. E.U. مر. مذ .

٨. بدران – فرحان ، مرجع مذكور ، ص ٧٣ .

٩. حسام الخطيب ، الأدب والتيكنولوجيا وجسر النص المفرع ، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، ١٩٩٦ .

١٠. " Hypertexte ". in, Dictionnaire Hachette Multimédia 98 .

١١. " Multimédia ", in, Encylopédie Microsoft ® Encarta ® 98 .

١٢. " Hypertext ", in, Encylopaedia Britannica 98, 1995 - 1996, Microsoft corp .

١٣. موسوعة إنكارطا ، مر . مذ .

١٤. Laurent Jennet La stratégie de la forme, Poétique N° 27, 1976, p. 271.

١٥. حسام الخطيب ، مرجع مذكور ، حيث نجد الباحث قد عاد إلى بعض المخطوطات والمطبوعات العربية الأولى ، وحاول الاشتغال بها معتبراً إياها جذوراً مبكرة للنص المفرع ، ويقصد الترابط النصي . ص ١٣٣ .

